نبأ من الصين

لأحد علماء الفرنسيس

بعد ان ثارت ثورات البوكسر من دعاة الفتنة في الصين وصار سبيل للاوربيين أن يتداخلوا في شؤونها عمدت ان تحذو حذو اليابان في ابدال اوضاعها باوضاع غربية وتصبغ بلادها بصبغة الحضارة الاوربية فكان منها ان صرفت وجهتها الى التعليم . وبعد اربع سنين الغت نظام التعليم القديم وطريقة الامتحانات العتيقة فعد ذلك انقلاباً عظيماً لا في السياسة بل عدّ ضربة قاضية على كونفوشيوس وما لقيه بين ابناء الصين منذ القرن التاسع من النفوذ والتأثير فاصبحت تعاليمه هي المعمول بها واساس كل تعليم في البلاد الصينية فكان يتحكم في جزئيات الصينيين وكلياتهم ولم يعهد ان كان لبشر مثل هذه السلطة على مثل ذي القوم في عدده وان دامت شيطرة انسان قروناً لا يجرأ احدٌ على نقضها . فقد كان قبل المسيح بستمائة سنة . ولد في إمارة « لو » التي في اليوم ولاية « شانغ تون » وهي للالمان تعد جزءاً من « كياوتشو » . نعم لم يعهد في تاريخ البشر ما يشبه هذه العبادة وهي مدنية دينية يعبدها رجل بسيط و يعبده شعب لا يحصى مدة ٢٤ قرناً في الشرق الاقصى . ولذلك لم يجسر احدٌ من اتباع هذا المذهب على الغاء الطريقة القديمة في الفحوص وحذف اسم كونفوشيوس من المدارس سيما وصورته في كل صف يسجد لها التلميذ والاستاذ على حد سواء . فكان من هذا الانقلاب ان استعيض في المدارس عن تعليم جميع العلوم وجعلها فرعاً واحداً يجعل كل فرع منها مختصاً بفئة من الناس كأن تكون الاولى مدرسة الحقوق والاخرى للطب والثالثة للعلوم السياسية والرابعة للصنائع والفنون وغير ذلك وكان يكفي في نيل الطالب لشهادة المدارس انكلية ان ينشيء شيئاً في الادب يأخذ موضوعه من كتب كونفوشيوس و يطلب اليه كتابة شيء في الشعر وكانت تفتح ابواب المناصب والمراتب امام من يحسن ذلك من الطلاب . فعرفت الحكومة عقم هذه الطريقة في التعليم وانشأت مدارس خاصة دعتها « مدارس العلوم الحقيقية الثابتة » وانشأ الامبراطور نظارة للمعارف العمومية ترقب احوالها كما هو الحال في الغرب وستقسم تلك المدارس الى ثلاث طبقات ابتدائية ووسطى وعليا . وقد رخصت الحكومة لبعض الولاة ان ينشئوا في عمالاتهم مدارس مجانية يقرأ فيها التلاميذ نصف النهار و يتمكن الفقراء في خلال ذلك من الدراسة سيما في الصباح والعمل لتحصيل قوتهم بعد الظهر وهذه المدارس اشبه بمدارس البالغين في فرنسا والفرق بين هذه وتلك ان هذه تفتح في المساء وتلك تفتح في الصباح ذلك لان الصينيين

لا يسهرون في الليل اللهم الا من يتعاطى الافيون منهم وما عداهم فانهم يباكرون منامهم حفظاً لصحتهم وحرصاً على الاضواء وصرف شيء منها عبثاً

ولقد كان اصلاح التعليم في الصين ونشر المعارف بين طبقات العملة او الغفيرة من المستحيلات الا بتسهيل طريقة الكتابة وكانت هذه من الابهام والالتباس بحيث حالت دون العامة وتلقي المعارف الادبية وغيرها . فرأى الامبراطور من الحكمة ان يصدر امره ليستعمل خط جديد صيني يتألف كله من خمسين حرفاً و يسهل اتقانه في شهرين . وبفضل هذه الطريقة الجديدة اصبح الآن ثلثمائة الف صيني يعرفون القراءة والكتابة . وقد نشر اهل العلم جرائد تطبع بهذه الحروف الجديدة ليتمكن المتعلمون من استخدام هذه النعمة ولذا اصبحت نتائجها راهنة من الآن

ادركت الصين بعقول رجالها الثاقبة كل الادراك ان نشر التعاليم الديمقراطية بين الغوغاء من اهلها لا يكون الا بواسطة الصحافة التي تتناولها العقول كافة وان الطريقة الحقيقية في ازالة غشاوة الاوهام عن ابصار العامة وإزالة ما علق في نفوسهم عن الاجانب ان يطلعوهم على اوضاع الغربيين وكانوا يرونهم من قبل اعداء لا يميلون الا الى السلب ولا يظمأون الا لسفك الدماء و يطلقون عليهم إسم « شياطين الغرب » . واذ اخذت الصحف تستخدم الخط الجديد فستحارب هذه الاوهام وتنتهي بالتغلب عليها و إزالتها من العقول وهذا هو الرأي الشائع عند من يرون اختطاط خطة النجاح

يطمع الامبراطور ان يبث العلم في عقول رعاياه وهذا الامر موقوف على الاكثار من المدارس والمدارس تحتاج للانفاق والصين يعوزها المال كما قد تمس الحاجة اليه في كل مملكة فلم يرَ ابن السماء بدّاً من استكفاف اكف الطبقات كلها وراح يفتتح الاكتتابات العامة وجعل لكل من يؤدي الف فرنك لقب شرف او وساماً ومن ادى من عشرة آلاف الى خمسين الف فرنك يحق له ان ينشيء وسط الشوارع العامة قوس نصر من الحجر يخلد به اسمه وعلى نسبة عظم المبلغ المعطى يكون البناء التذكاري جسيماً . وهذا من غرائب الحيل الباعثة على العلم النافع . فالصيني يحب باجداده ولذلك تراه يتعاظم الا ن اذا تخلد ذكره كما تخلدت اسماؤهم و يكون له بهذه الطريقة باب يثبت به اخلاصه لبلاده بل يؤيد به مجده واعطياته وربما كان في الاوربيين من تطمح نفوسهم الى هذا التمايز من اقامة اقواس نصر من هذا النوع بعد ان كان الملوك حتى اليوم مستأثرين تجدها دون سائر الناس .

ومما اضافه ابن السماء على تلك الاكتتابات لانشاء المدارس نزع ملكية الاراضي والعقارات لاجل المنافع العامة فصدر امره الى المعابد التي تنفق على نفقة الحكومة ولا

اعترفت هي بها ان تدفع مداخيلها الى خزانة الدولة لتخصص للمدارس . وعلى هذا الفكر احالت الحكومة الصينية قصر امير توان السابق الذي اثار ثورة البوكسر الى مدرسة حربية خاصة بتعليم الامراء والاشراف وابناء الحكام من اهل الطبقة العالية وهذا القصر في بكين في المدينة التاتارية . ولا بدَّ من الملاحظة هنا ان انشاء هذه المدرسة الحربية هي على طرفي نقيض مع تعاليم كونفوشيوس الذي ينفي الحرب ويحظره على الصينيين ويعده اسوأ الجرائم . ولقد كان من كره هذا الفيلسوف ومقاومته للحروب ان اصبحت به المملكة السماوية بلا مدافع يدفع عنها عادية اعدائها فعرف الصينيون اليوم بما لقنتهم اياه يابان من دروسها الحاجة الماسة في الشرق الاقصى الى تأليف الجيوش المنظمة القوية القائمة بحض تجاربهم واستعدادهم ليقاوموا بها الدخيل الذي لا يرمي الا الى تجزئة بلادهم واكتساح ارضهم . وقد شعروا بان خضوعهم لتقاليدهم ولدينهم قد اضرَّ بهم فقضى عليهم الحكيم كونفوشيوس . بيد انهم لم يعصوا عليه ولم ينزعوا حبه من نفوسهم بل تركوه وشأنه واخذوا ينظرون في امرهم من طريق آخر . وانشأت الحكومة بجانب نظارة المعارف العمومية نظارة اخرى للمعارف مهمتها الاولى ان تؤسس في المملكة كلها مدارس للتجارة والزراعة وتربية الدود والغابات وكان الصينيون على مثال قدماء الرومان يحتقرون التجارة ويعدون اهلها من الساقطين في الهيئة الاجتماعية ولا يرى الصينيون الا الطاعة العمياء لما رسمته شريعة كونفوشيوس لان هذا لا يحترم الا الادباء ورجال الدرس والبحث فاصبح ما كان يحول دونهم ودون الترقي قروناً كثيرة جائز العمل مرخصاً باتيانه

وكانت الصين من قبل محرومة من المكاتب العامة على مثال خزائن الكتب في اوربا فلم يظهر لاحدهم منذ عهد كونفوشيوس ما يتأتى عن المكاتب من الفوائد للمدنية فأسسوا اليوم مكاتب جمعوا فيها جميع الكتب المنقولة الى اللغة الصينية التي نشرت في ممالك كثيرة في العلوم العملية والمعارف النافعة التي من شأنها ان تساعد الصين على النهوض وانشأت الحكومة مكاتب للترجمة رسمية في جميع المدن الصينية الكبرى . اما المجلات فليس غير المرسلين الكاثوليك والبروتستانت من يعنى بنشرها في الصين حتى الآن وهي تبحث في الموضوعات الدينية وتشغل قليلاً من صفحاتها بالابحاث العلمية وقد ارتقت الصحافة كثيراً في الصين وفيها اليوم كثير من الجرائد اليومية والجرائد التي تصدر ثلاث مرات في الشهر وادرك الصينيون منذ كارثة البوكسر ان الصحافة من المواد الجوهرية في الحياة العامة ولذلك ترى كل من تعلم القراءة منهم يقرأ الجرائد حتى الامبراطور وجميع الجرائد الجديدة كلها تقريباً تكتب على مثال جريدة « سهان باو » التي تصدر في مدينة شنغاي وهي التي اسست سنة

١٨٦٨ على يد شركة صينية اوروبية وذرع هذه الصحيفة الكبيرة متر وثلاثون سنتيما ذات ثماني صفحات طولها ٣٠ سنتيمترا وعرضها ٣٠ وتباع بعشرة «سايك» وهي تعادل خمسة سنتيمات

وترى المقالات في هذه الجريدة التي يكتبها الادباء العارفون من اهل الكفاءة جيدة في موضوعاتها منوعة الاساليب وهي في العادة مفعمة بالاحساس الطاهر ويظهر استقلال هذه الصحيفة مما تنصح به الحكومة وبما تدل عليه من الفساد المستحوذ في الادارة وبما تعلقه على السياسة الخارجية وقد تكون تعليقاتها سديدة . وفي هذه الجريدة مجال طويل للبحث في الشؤون المختلفة وترى رواد الاخبار في الصين على غاية من المهارة يدخلون في كل مكان ويعرفون كيف يحدثون غيرهم ويروون عنهم الاخبار وهي طريقة اخذوها عن اليابانيين . واحسنوها وترى الصفحات الاربع الاخيرة غاصة بالاعلانات التجارية صينية او اجنبية وفي اعلانات الاجانب حروف باللغات الافرنجية لالفات انظار الصينيين وورق هذه الجرائد معمول من ورق الخيزران «البامبو» ولذلك تراه رقيقاً للغاية ويطبع من وجه واحد ويترك الوجه الآخر ابيض لانه شفاف يرى ماوراءه لانه اميل الى الصفرة على ان لون ورق الجرائد وطبعها يمكن تغييرهما في بعض الاحوال على نحو ما يفعل ارباب الطباعة اذا مات احد الاسرة المالكة فتطبع الورقة التي تذكر الامر المعلن بالخبر على طبع ازرق وهو علامة الحداد عند امبراطرتهم لان البياض لايتجلى على الورق الاصفر المستعمل في العادة وعند زواج الامبراطور وعيد ولادته او ولادة الامبراطورة والدته تصدر الصحف على ورق احمر وهو لون العيد والسعادة وتطبع بالسواد . ويستعمل اللون الاحمر ايضاً في اليوم الاول من السنة وهو يصادف بعد شهر من رأس السنة في اوربا .

والجرائد المصورة ناجحة في المدن العظمى وهذه الصحف مؤلفة من نحو اثنتي عشرة ورقة مضاعفة ولها غلاف احمر او اخضر وثمن النسخة عشرون سنتيما اما الصور فتكون خطوطا في موضوع جديد

ليس في الصين قوانين مقيدة لحرية الكلام والكتابة كما انه ليس فيها قوانين تضمن لها حقوقها بحيث ان المحافيين الصينيين هم تحت رحمة رجال الشرطة والحكام كل حين . ولما لم تكن الصحف الصينية لهذا العهد لسان حال حزب سياسي فليس لها قوة ولا خطر منها على الحكومة ولذلك يصح ان يقال ان ليس في الصين صحف غير رسمية ولا صحف معارضة وقد حاولت مؤخراً جريدة انشئت في وسط بلاد الصين بشركة صينية يابانية ان تنزع عن تلك الطريقة وتخرج عن ربقتها فالغاها الوالي للحال

ولا بأس ان نختم هذا الفصل بالكلام على الصين الحديثة بان الحكومة الصينية

آخذة بتنشيط تعليم النساء وكان حتى الآن مهملاً بالمرة اذ ان المرأة كانت أبداً في الشرق ولا سيما في الشرق الاقصى بعيدة عن الاهتمام بشؤون بلادها اما الآن فقد أسست الاميرات المالكة المدارس وتطوعت العقائل اليابانيات للتدريس في كل من بكين وسوتشو وهذه المدينة من بلاد الصين بمثابة باريز من فرنسا . وانشئت عدة مدارس كبيرة لبنات الاسرات الكبيرة وقد حضر في العهد الاخير اربع عشرة اميرة مغولية الى بكين ليلقين فيها التعليم الاوربي . واللغة الانكليزية تدرس في جميع هذه المدارس

وانت ترى ان للصين الجديدة مستقبلاً زاهراً يبعث الغرب على الطمأنينة الآن وهو مخائف من الخطر الاصفر وان الصين تسير الى المستقبل في نفس الخطة التي اختطها الغربيون نعم ان هذا الامر يحتاج الى زمن طويل قبل ان تأتي الشجرة المغروسة باثمار يعتد بها حقيقة ولكن الصيني عرف بصبره لذلك تراه يؤمل نيل النتيجة في هذا القرن وهو الذي عرف ان ينتظر الغد ويرقبه رقبة الفلاسفة مدة طويلة لا تقل عن بضعة الوف من السنين اه .

صحف منسية

كتاب الاشربة

لابن قتيبة

استخرجه احد علماء المشرقيات من الفرنسيس

توطئة

ابن قتيبة اشهر من ان يذكر هنا بكلمات قليلة تكون ترجمة له وقائمة بتصانيفه ولذلك لم أرَ حاجة الى اعادة ما ترجم به في وفيات الاعيان كما هو مذهب كل من طبع له كتاباً في الشرق فاكتفي بما اتى به ابن خلكان عن البحث اللائق بشأن صاحب عيون الاخبار وكتاب المعارف .

ثم اني رأيت ان صغر حجم كتاب الاشربة لا يقبل الاطالة في الخطبة — وان كانت الاطالة في الخطب مما عوتب به الامام ابن قتيبة في الوفيات — فارجأت الى وقت آخر انشاء مقالة تتي بحقوق هذا العلامة ان شاء الله فأحصر الكلام الآن في الكتاب الذي بدأت اليوم بنشره ووصف النسخة التي نقلته عنها وبالله التوفيق

اما الكتاب فمعروف وقد ذكره صاحب كشف الظنون (تحت عدد ٩٨٤٦ الجزء ٥ ص ٤٣) واستشهد ببعض فقراته غير واحد من الادباء لا سيما ابن عبدربه فان هذا